شاهد الحماسة

بين القدماء والمحدثين

د. إبراهيم بن مسعود بن قاسم الفيفي(*)

تقديـــم :

لا يخفى على دارس في العربية، وما يتصل بها من علوم مكانة اختيار أبي تمام الموسوم بالحماسة، وثقة العلماء السابقين فيه، والعناية الكبيرة به، وآية ذلك أننا لا نعرف أثراً أدبياً أو ديوان شعر توافر عليه الشراح مثلما توافروا على هذا الاختيار، حتى أربت على ثلاثين شرحاً.

ويزيد في أهميته أنه يحوي قدراً ليس باليسير من شواهد العربية، ولا نغالي إذا قلنا: إننا لا نكاد نفتح كتاباً في علوم العربية إلا ونجد من شواهده ما هو من شعر الحماسة ، متوجاً بقولهم: والشاهد عليه بيت الحماسة فيسلمون.

غير أني نظرت في كتب بعض المحدثين ، فوجدت أقوالا مفادها التشكيك في قيمة هذا الاختيار، وإخراجه من مصادر الشعر الجاهلي الموثوق به، منطلقين من أدلة وحجج لا تقوى أمام البحث والتقصي ، ويؤخذ القول من بعدهم مأخذ التسليم ، دون إدراك لخطورة هذه الدعوى التي إن قبلت مست كيان العربية جمعاء، وجازته إلى بعض علوم الدين.

ويأتي هذا البحث لدفع هذه التهمة ، بعد دراسة متأنية شاملة بتوفيق الله، وقد جعلته في فصلين على النحو التالي:

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية – كلية التربية – جامعة الملك عبدالعزيز – جدة المملكة العربية السعودية .

الفصل الأول: حماسة أبي تمام، ومنزلتها.

الفصل الثاني: التهمة والرد عليها، وفيه:

أولاً: أقوال المحدثين.

ثانياً: منطلقاتهم.

ثالثاً: رد الأقوال وتفنيد الحجج.

ثم الإحالات وفهارس المصادر والمراجع

سائلاً الله التوفيق في القصد

ملاحظة: أصحاب هذه الأقوال من المحدثين علماء نجلهم ونقدرهم، ونلتمس لهم العذر، ولا نشك في قصدهم، ويبقى الحق أحق أن يتبع.

حماسة أبي تمام ومنزلتها :

عرف تاريخنا الأدبي على امتداد عصوره ـــــ عدداً من الشعراء الذين ذاع صيتهم، وعلت شهرتهم، بسبب عبقريتهم ونبوغهم ، وكان أبو تمام حبيب بن أوسى الطائي أحد هؤلاء الشعراء الأفذاذ الذين عرفهم القرن الثالث الهجري، فقد جمع بين الموهبة الفنية، والنبوغ العقلي ، وكان عبقرياً كثير الحفظ،واسع الإطلاع. كما كان عالماً بالشعر قديمه وحديثه.

يقول عنه الآمدي : [١] " كان أبو تمام مشتهراً بالشعر، مشغوفاً به، مشغولاً مدة عمره بتخيره ودراسته، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة" وقال بعد أن أتى على ذكرها : " وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وأنه اشتغل به، وجعله وكده ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه، فإنه ما شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه واطلع عليه".

وكرس أبو تمام جهده في حفظ أكبر قدر من أشعار العرب وأراجيزهم، حتى إن ابن خلكان يذكر : " أن له من المحفوظ مالا يلحقه فيه غيره، قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب، غير القصائد والمقاطيع" [٢] .

وروى الأدب عن رواة كثر، منهم كما ذكر الصولي : [٣] كرامة بن أبان العدوي، وأبو عبد الرحمن الآمدي، وسلامة بن جابر النهدي، وقلابة الجرمي، ومحمد بن خالد الشيباني، وغيرهم. وروى عنه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن عتاب، وأبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، وغيرهما.

وكانت مجالسته الكتب والدفاتر غايته ومبتغاة، يمضي معها سحابة يومه، دون ملل أو تذمر ، يروي ابن المعتز عن محمد بن قدامة أنه قال: " دخلت على حبيب بن أوسى بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى، فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إلي وسلم

عليّ ، فقلت له: يا أبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً، وتدمن الدرس، فما أصبرك عليها ؟ فقال: والله ما لي إلف غيرها، ولا لذة سواها " [٤] .

من هنا كان أبو تمام ذا ثقافة متعددة الجوانب ، حتى إن عقله وعلمه في كثير من الأحيان يطغيان على شعره، لذا قال الصولي عنه:

" وعلمه وعقله فوق شعره " [٥].

ويذكر عن المبرد أنه قال : " ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال: ما رأيت أعلم بكل شيء منه " [٦] .

وذكر عن البحتري أنه قال: " والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائي لرأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً ، وعلمت أن أقل شيء فيه شعره " [٧] .

ولقد عني عناية كبيرة بالاختيار والانتخاب من أشعار العرب، وألف في ذلك كتباً مشهورة، وهي كما جاءت لدى الآمدي [٨] :

١. كتاب الحماسة ، وذكر أنه اختيار تلقط فيه أشياء من أشعار المقلبين ، والشعراء المغمورين غير المشهورين، وهو أشهر اختياراته وأكثرها في أيدي الناس.

٢. اختيار مقطعات، وهو ــــ كما أفاد الآمدي ــ مبوب على ترتيب الحماسة، إلا أنه ذكر فيه أشعار المشهورين، وغيرهم من القدماء والمتأخرين، وصدره بذكر الغزل، وقد قراه الأمدي واستفاد منه، ووصفه بأنه ليس بمشهور شهرة غيره. ويرى الدكتور عبد الله عبد الرحيم عسيلان [٩] أن الأمدي يعني بهذا الاختيار كتاب الوحشيات أو الحماسة الصغرى، وقد طبع بتحقيق وتعليق الأستاذين عبد العزيز الميمني ومحمود شاكر، وهو مبوب على تبويب الحماسة، إلا أنه لم يصدر بباب الغزل كما أفاد الآمدي، وأرجع ذلك على أن النسخة التي وقعت في يد الآمدي قد تكون مبتورة إلى باب النسيب ، أو ربما كانت أوراقها متداخلة ومختلطة.

٣. الاختيار من أشعار المحدثين، وكان موجوداً في زمن الآمدي.

٤. الاختيار القبائلي الأكبر، اختار فيه من كل قبيلة قصيدة، وقد وقف عليه الآمدي.

٥. اختيار سماه الآمدي " القبائلي" اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل، ولم يورد فيه كبير شيء للشعراء المشهورين.

٦. اختيار تلقط فيه محاسن شعراء الجاهلية والإسلام، فأخذ من كل قصيدة شيئاً حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة.

٧. اختيار يعرف باختيار شعراء الفحول.

ولم يصلنا من هذه المختارات سوى كتاب الحماسة، وكتاب الوحشيات أو الحماسة الصغرى.

****

وقد احتلت الحماسة منزلة كبيرة بين العلماء والأدباء، ونالت من العناية ما لم تنله مجموعة أدبية أخرى، وآية ذلك أننا لا نعرف أثراً من الآثار الأدبية، كتاباً كان أو ديوان شعر توافر عليه الشراح مثلما توفروا على شرح حماسة أبي تمام، حتى أربت شروحها على ثلاثين شرحاً، وأقبل عليها الأدباء منذ ظهورها، وآثروها على غيرها من المختارات، وبلغ الاهتمام والعناية بها أن بعض العلماء كان يحملها معه في رحلاته العلمية ، ضمن ما يؤثره من الكتب، كما صنع أبو الفرج محمد بن عبد الله بن الحسن البصري، الذي وصل إلى واسط ومعه بعض الكتب، منها الحماسة، فاقتصر عليها في القراءة على شيخه محمد بن أحمد بن سهل الحنفي النحوي الواسطي [١٠] .

ومن العلماء من راق لهم صنيع أبي تمام في تصنيف الشعر حسب المعاني، فاقتبسوا منه، واقتفوا أثره، وألفوا حماسات على غرار حماسته ، ومنهم من نقل عن الحماسة في مصنفاتهم، ومنهم من أنطقتهم الحماسة بالثناء عليها وعلى صانعها من مثل الباقلاني [١١] والبغدادي[١٢] ، ويقول ابن خلكان: "

وله كتاب الحماسة، التي دلت على غزارة فضلة ، وإتقان معرفته بحسن اختياره " (١٣) .

ودفع الإعجاب بعضهم إلى القول: " أن أبا تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره " (١٤) .

ويزيد في أهميتها أنها تحوي قدراً ليس باليسير من شواهد العربية، ولا نغالي إذا قلنا: إننا لا تكاد نفتح كتاباً في علوم العربية ـــ لغتها ونحوها وبلاغتها، إلا ونجد من شواهدها ما هو من شعر الحماسة.

وقد وثق علماء اللغة بما فيها من شواهد، وناهيك بالزمخشري العالم اللغوي المشهور الذي قال عن أبي تمام وحماسته: " وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء: والدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك، لوثوقهم بروايته " (١٥) .

والثقة بالرواية أمر وضع العلماء له قيوداً وشروطاً دقيقة لكونه مصدراً من مصادر التشريع اللغوي، ولا يقدح في الحماسة جهالة القائل أو عدم تسميته، لأن الأوائل من جامعي اللغة وواضعي النحو ومؤلفي الشعر لم يكونوا يحفلون كثيراً بتسمية قائل الشعر، لقربهم من المنابع الأولى ، بالرواية والتلقي والمشافهة، ويزيدك اطمئناناً قول العلامة البغدادي: " ويؤخذ من هذا أن الشاهد المجهول قائله وتتمته إن صدر من ثقة يعتمد عليه قبل، وإلا فلا ، ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد، اعتمد عليها خلف بعد سلف، مع أن فيها أبياتاً عديدة جهل قائلوها، وما عيب بها ناقلوها ، وقد خرج كتابه إلى الناس والعلماء كثير، والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة ، ونظر فيه وفتش ، فما طعن أحد من المتقدمين عليه، ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر " (١٦) .

وقد تآزرت عوامل كثيرة لتجعل من اختيار أبي تمام هذا عملاً أدبياً استحق تقدير وإقبال العلماء، ومن هذه العوامل:

١. اشتماله على شعر لشعراء مغمورين، ما كنا نقف على روائعهم لولا حماسته.

٢. شمولها لمعاني وأغراض الشعر المختلفة.

٣. السبق والدقة في التبويب حسب الأغراض، فقد قسم أبو تمام الحماسة عشرة أبواب جاءت على الترتيب الآتي: الحماسة، فالمراثي، فالأدب، فالنسيب، فالهجاء، فالأضياف والمديح ، فالصفات ، فالسير والنعاس ، فالملح ، فذمة النساء.

٤. تغطية اختياره لمساحة زمنية ممتدة من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.

٥. مخالفته لمذهبه الشعري، الأمر الذي استطاع به جذب خصومة، كأبي رياش الذي كان يطعن في أبي نواس وأبي تمام، ويقول عنهما: إنهما أفسدا الشعر [١٧] ، فأصبح من كبار رواة الحماسة، وأوائل شراحها.

٦. أنها مصدر ثري لشعر طيء ، ودرس لغتها.

وهذه العوامل متآزرة مع غيرها جعلت للحماسة مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، تتمثل في مظاهر كثرة ، منها:

* حرص الأمراء والوزراء على اقتناء نسخ مضبوطة من الحماسة، واجتهادهم في روايتها بالسند، كأبي الفضل الميكالي، وأبي الأصبع النميري، وأبي بكر المصحفي [١٨] .

* تولد شعور لدى بعض الكتاب والمتأدبين يحط من شأن من أراد أن يحذو حذو أبي تمام في حماسته ، فقد كتب أبو الحسن أحمد بن فارس رسالة إلى أبي عمرو محمد بن سعيد الكاتب جاء فيها:

"ألهمك الله الرشاد، وأصحبك السداد، وجنبك الخلاف، وحبب إليك الإنصاف، وسبب دعائي بهذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة، وإعظامك ذلك... " [١٩] .

* وصل إعجاب بعض الأدباء بحماسة أبي تمام إلى أن ينظم ديواناً يعارض فيه الحماسة بيتاً بيتاً وهو ما فعله الطبيب المظفر بن أحمد الأصفهاني، [٢٠] ، بينما عمد بعض الأدباء على نثر أبيات الحماسة بأسلوب أدبي، يطبق فيه المقاييس الفنية المثلي في عصره، وهو ما فعله أبو سعيد محمد بن علي بن خلف الهمداني في كتابه منثور المنظوم [٢١] .
* احتذى حذو أبي تمام في حماسته جمع كثير ممن جاء بعده من الشعراء والأدباء، فظهرت مجموعات شعرية باسم الحماسة، أوصلها الباحثون إلى ست عشرة حماسة. [٢٢] .
* تناول كثير من اللغويين والأدباء والنحاة المعروفين حماسة أبي تمام شرحاً وإعراباً، وتفسيراً لأسماء شعرائها ، وضبطاً لما لم يضبط منها، وذلك ما لم يتوافر لمجموعة سابقة عليها ولا لاحقة بها، ويمكن تقسيم تلك الشروح إلى ثلاثة أطوار.

الطور الأول: شروح غلب عليها التخصص في ناحية دون الأخرى، فغلب على شرح أبي رياش العناية بالأخبار، وعلى شرح الديمرتي العناية باللغة ، وعلى شرح النمري الروايات والمعاني.

الطور الثاني: شروح أراد مؤلفوها إكمال النقص في الشروح السابقة، طلباً لتكامل جوانب الشرح، وذلك ما يتضح عند البياري والمرزوقي والفسوي.

الطور الثالث: شروح عنت بالجمع والتأليف بين الشروح السابقة ، والأخذ من كل شرح ما يغلب على اهتمام مؤلفة ، مع الإشارة إلى أصحاب الشروح حيناً وإغفال أسمائهم حيناً آخر، وهذا ما يمثله شرحا التبريزي والراوندي.

وقد كان لكتابي ابن جني " التنبيه في شرح مشكلات الحماسة" و " المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة" أثر واضح في الشروح التي جاءت بعدهما ، كالمرزوقي والاستراباذي والمعري.

لذا كانت تلك الشروح جسراً رائعاً نقلت إلينا ثقافة الشراح الغزيرة في الادب واللغة والنحو ، واحتفظت لنا بكثير مما يتصل بهذه الجوانب.

وبعد ما أريتك من قيمة هذا الاختيار الشعري، ومن منزلة صاحبه نجد أقوالاً لمحدثين مفادها : التشكيك في قيمة هذا الاختيار العلمية، وإخراجه من مصادر الشعر الموثوق به، والمستشهد به في علوم العربية ، معتمدين على حجج باهتة ، وأدلة لا تقوى على هدم هذا التراث العظيم. ويؤخذ القول ما بعدهم مأخذ التسليم، دون إدراك لخطورة هذه الدعوى ، التي إن قبلت مست كيان العربية جمعاء ، وجازته على بعض علوم الدين، والصلة بين العلمين صلة اللحم بالعظم. وهذه القضية لا تقل خطراً عن محنة الشعر الجاهلي التي تبناها طه حسين ، ثم أدرك تبعاتها فعاد يفخر بما كان في الأمس يهزأ به.

وإليك أقوال المحدثين، ومنطلقاتهم ، والرد عليها، سائلاً الله الصواب، وحسن القصد.

الفصل الثاني : التهمة والرد عليها، وفيه:

أولاً: أقوال المحدثين.

ثانياً: منطلقاتهم.

ثالثاً: رد الأقوال وتفنيد الحجج.

أولاً: أقوال المحدثين.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن أصحاب هذه الأقوال علماء نجلهم ونقدرهم، ونعترف بسبقهم، ونلتمس لهم العذر، ونحسن بهم الظن، فما تيسر لنا في وقتنا هذا لم يكن متيسراً لهم ، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا محمدا عليه أفضل الصلاة وأجل التسليم.

وهؤلاء العلماء هم: " الأستاذ/ سيد بن علي المرصفي ، والأستاذ: أحمد أمين ، والدكتور ناصر الدين الأسد " وإليك أقوالهم تباعاً:

أ – قال المرصفي في مقدمة كتابة " أسرار الحماسة " :

" وقد قالت رواة الأدب: إنه في اختياره أحسن منه في أشعاره، إلا أنه – سامحه الله تعالى – كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه، فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته، وأحياناً يبدل كلمات العرب بكلماته " (٢٣) .

وكأن المرصفي يخرج بقوله هذا عن إجماع رواة الأدب، ويلصق بأبي تمام تهمة تبديل ألفاظ الشعر أحياناً، وليس يخاف عليك شناعة هذا القول.

وعند قول عبيد بن ماوية:

فـــإني لـــذو مِـــرة مُـــرة إذا ركبـــت حالـــة حالهـــا

تراه يقول: " هذا حديث وعيد لا يناسب ما قبله " إلى أن قال : " ولنك عادة أبي تمام في اختياره، يحذف ما يقف عليه المعنى " (٢٤) .

ولا أدري لم جعلها عادة لأبي تمام، وليته وقف عند هذا ، بل جازه إلى ما هو أطم وأعظم، فقد اتهمه بصناعة أبيات ونسبتها إلى آخرين، فعند قول تأبط شراً.

بماصعه كـل يـشجع قومـه   وما ضربه هام العدا ليـشجعا

يقول : "هذا، والبيت مقدم على ما بعد، وكأنه من صناعة أبي تمام "(٢٥)

ب- قال الأستاذ أحمد أمين في تصديره لشرح الحماسة للمرزوقي:

" ولذلك فقد يقرأ القصيدة الطويلة كلها، فيعجبه منها معنى أو معنيان، فيختارهما من بين القصيدة الطويلة، وإذا لم يكن بينهما رابط ربط بينهما، وإذا كانت هناك كلمة نابية غيرها بخير منها، فكان مختاراً ومنقحا في وقت واحد " (٢٦) .

والأستاذ أحمد أمين في قوله هذا يذهب مذهب سابقه في اتهام أبي تمام بتغيير ألفاظ الشعر، وصناعة آبيات يربط بها ما اختل من القصيدة نتيجة الاختيار.

ج- يقول الدكتور ناصر الدين الأسد في حديثه عن رواية كتب المختارات، وقيمتها التاريخية من حيث هي مصدر من مصادر الشعر الجاهلي:

" أما الحماسة فليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام، ولا رواية أخذت بها عن أبي تمام، وإنما أخذها من الكتب، وانتاقها من الدواوين والمجاميع.. ثم كتب أبو تمام ما اختاره، وبقي كتابه دهراً مطوياً، لم يقرأه عليه أحد، كما لم يقرأه هو على أحد، إلى أن أتيح له أن ينشر ويظهر بعد وفاة أبي تمام، فأخذ ما فيه من الصحف المكتوبة نفسها لا عن العلماء ، وهذا المرزوقي شارح الحماسة - وبينه وبين أبي تمام نحو مائتي عام - لا يذكر إسناداً انتقل إليه به الكتاب، بل إنه لينص على أنه أخذه من الكتب ، وأنه كانت بين يديه نسخ عدة منه، فهو يقابل بينها، ويثبت ما يجد فيها ، وليس فقدان الرواية والإسناد هو

الأمر الوحيد الذي يباعد بين الحماسة وبين بحثنا، بل ثمة شيئ آخر لا يقل عن سابقه في المباعدة بين هذا الكتاب وبين بحثنا وهو صنيع أبي تمام فيما اختاره من تغيير النص الشعري، مما أوضحه المرزوقي في مقدمته "(٢٧) .

وخلاصة قول الأسد: أن الحماسة يجب أن تخرج من مصادر التشريع اللغوي لكونها لم تنتقل إلى أبي تمام برواية ، ولم تؤخذ عنه رواية، ولصنيعه فيها من تغيير النص الشعري.

ثانياً: منطلقات المحدثين في أقوالهم :

منشأ هذه التهمة عند المحدثين أقوال وقفوا عليها عند المرزوقي والتبريزي في شرحيهما حملوها محمل التسليم، دون دليل أو تمحيص، والتصقوا بها، متجافين عن إجماع الرواة والنقاد ، وهذه الأقوال هي:

* قال المرزوقي عند بيت تأبط شراً.

فأبت إلى فهـم ولـم أك آيبـاً   وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

" .... واختار بعضهم (٢٨) أن يروى:

فأبت إلى فهم وما كدت آيباً...

وقال كذا وجدته في أصل شعره. قال: ومثله في أنه رده إلى الأصل، ووضع اسم الفاعل موضع الفعل قول الآخر.

أكثرت في العذل ملحـا دائمـاً   لا تكثرن أني عـسيت صـائما

والمثل السائر: عسى الغوير أبؤساً.

ولا أدري لم اختار هذه الرواية ؟

ألأن فيها ما هو مرفوض في الاستعمال شاذ ، أم لأنه غلب في نفسه أن الشاعر كذا قاله في الأصل ؟ وكلاهما لا يوجب الاختيار . على أني قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيراً من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب،

ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له ، ويروى: ولم آل آيباً، والمعنى: لم أدع جهدي آيباً وفي الإياب .والأول أحسن " [٢٩] .

* وقال المرزوقي أيضاً في مقدمته النقدية : " حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما في اختياره بها "[٣٠] .

* قال التبريزي في مقدمة شرحة للحماسة:

"وكان سبب جمع أبي تمام الحماسة أنه قصد عبد الله بن طاهر ، وهو بخرسان، فمدحه.. وعاد من خرسان يريد العراق، فلما دخل همذان اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة، فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق، ومنع السابلة ، فغم أبا تمام ذلك، وسر أبا الوفاء ، فقال له: وطن نفسك على المقام، فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان. وأحضره خزانة كتبه، فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر، منها كتبا الحماسة، والوحشيات وهي قصائد طوال، فبقي كتاب الحماسة في خزانة آل سلمه، يضنون به ، ولا يكادون يبرزونه لأحد، حتى تغيرت أحوالهم ، وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العوائل، فظفر به ، وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه، ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه، فشهر فيهم ،ثم فيمن يليهم " [٣١] .

ومن هذه القصة التي رواها التبريزي ، والقولين السابقين للمرزوقي فهم المرصفي وأمين والأسد ثلاثة أمور ، جدير بها أن تنزل بقيمة الحماسة، لأنها نصوصاً يستشهد بها في علوم الدين والعربية، وهذه الأمور هي:

أ. أن الحماسة ليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام، وإنما أخذها من الكتب، وانتقاها من الدواوين والمجاميع، التي وجدها في خزانة آل سلمة.

ب. أن الحماسة ليست لها رواية أخذت بها عن أبي تمام ، لأنها بقيت في خزانة آل سلمة ، ولم تنشر إلا بعد وفاته.

ج. أن أبا تمام يعمد أحياناً إلى تغيير نصوص الشعر ، ليستقيم له أن يربط بين الأبيات التي تفككت ، أو ليستر عوار نقيصة يشين وجه الحسناء من مقطوعاته.

ثالثاً: رد الأقوال، ومناقشة الحجج:

*** التهمة الأولى:**

قولهم أن الحماسة ليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام، وإنما أخذها من الكتب والمجاميع وجدها في خزانة آل سلمة.

هذا القول منشؤه القصة التي ذكرها الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢) في مقدمة شرحه، وهي مضعفة عقلاً ونقلاً.

أما تضعيفها عقلاً: فإنه من غير الوارد أن يصنف أبو تمام خمسة كتب، ثم يتركها دون رواية أو عناية أو ذكر، هذا إذا علمنا أن بين تصنيفها حسب هذه القصة ووفاته قرابة تسع سنين.

وقد تعرض الدكتور طه حسين لهذا الخبر الذي ذكره التبريزي فأنكره، ورأى أنه " غير ممكن وغير معقول ، فقد كانت إقامته رهن: زوال الثلج، وهذا لا يتجاوز الأشهر القليلة، ومن المستحيل أن يصدق أنه اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة" (٣٢) .

وهذا القول مقبول عندي، رغم محاولة الاستاذ على النجدي ناصف إثبات هذا لخبر، والتماس تخريج له، بقوله : " إن أبا تمام لم يكن ينوي أول الأمر أن يلبث في همذان إلا ريثما يذوب الثلج، ويتيسر السفر، ثم عدل عن نيته هذه حين أقبل على العمل.. ومن الممكن المعقول ألا يكون لأبي تمام عهد بكتب آل مسلمة من قبل، فرأى العكوف عليها والإفادة منها غنيمة بالغة ، ونهزة نادرة، لا يجمل بمثله أن يتهاون بها" (٣٣) .

وأما تضعيفها نقلاً، فلم أرَ في شروح الحماسة المطبوع منها، وما وقع في يدي من مخطوطها، أحداً ذكر هذا الخبر قبل الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢) ولا بعده إلا أبو القاسم زيد بن علي الفسوي (ت ٤٦٧) في شرحه للحماسة ، فقد جاء في مقدمة شرحه " حكي أن أبا تمام لما قفل من نيسابور متوجهاً نحو العراق ودخل همذان ، والزمان شات ...." [٣٤] ثم ساق القصة نفسها.

ويلاحظ أن الفسوي كان في ورايته أكثر تحفظاً ، حيث بدأها بصيغة تمريضية ، هي قوله (حكي) وذلك يدل على عدم تثبته من هذا الخبر.

وأرجح أني يكون التبريزي قد اطلع على شرح الفسوي ، وأخذ منه هذا الخبر، وأسقط كلمة (حكي) الواردة في أول القصة ، خصوصاً إذا علمنا أن التبريزي في شرحه لم يأت بجديد ، ولم يكن مبتدعا ، بل عمد شروح السابقين فأفرغها في شرحه، وأشار إلى ذلك في مقدمته، وهذا ديدنه ومنهجه في شروحه، وكذا فعل في شرحه لديوان أبي تمام [٣٥] .

وإذا جزنا هذه القصة على علاتها ، وافترضنا صحتها ـــ مسايرة للدكتور الأسد – فإنا لا نقره على استنتاجه وحكمه ، الذي يرى فيه إخراج حماسة أبي تمام من مصادر الشعر الجاهلي، وإضعاف الثقة بما جاء فيها من شعر، بحجة أن أبا تمام ليس له رواية انتقلت بها الحماسة إليه ، وإنما أخذها من كتب ومجاميع وجدها في خزانة آل سلمة.

وهذه حجة باهتة ، وجل ما في الرد عليها سيكون من كلام الأسد نفسه، ليكون أوقع وأصدق ، وذلك من وجوه:

* **الوجه الأول:**

أن أبا تمام (١٧٢ – ٢٣١) من الرواة العلماء الموثوق بروايتهم ، الذين ينتهي إليهم جل أسانيد ما يرويه علماء القرن الثالث والرابع. وهؤلاء

العلماء الذين تنتهي عندهم معظم الرواية الأدبية للجاهلية - كما يقرر الأسد[٣٦] - طبقتان:

الطبقة الأولى: أبو عمرو بن العلاء ،وحماد الراوية ،ثم خلف الأحمر، والمفضل الضبي ، ومن في طبقتهم.

الطبقة الثانية: تلامذة هذه الطبقة الأولى ، وأشهرهم:

الأصمعي ، وأبو زيد، وأبو عبيدة ، وأبو عمرو الشيباني ، ثم ابن الأعرابي، ومحمد بن حبيب ، وابو حاتم السجستاني ، ومحمد بن سلام، ومن في طبقتهم. وقد أدرك أبو تمام الأصمعي وأبا زيد وأبا عبيدة وأبا عمرو الشيباني.

فهؤلاء في الأغلب الأعم نهاية الإسناد في الرواية ، يأخذها من جاء بعدهم على أنها في جملتها صحيحة موثوقة، لا يسأل عمن أخذها هؤلاء ، ولا يجد في انقطاع الإسناد عندهم ما يضعف من هذه الرواية، وإني لأعجب من إخراجه الحماسة من مصادر الشعر الجاهلي ، وقدحه فيها من جانب الرواية وهو يقول : " مصدر الشعر الجاهلي هو الدواوين نفسها، وكتب المختارات الموثوق بروايتها " [٣٧] .

وهل نال اختيار أو ديوان شعر ثقة العلماء واهتمامهم، فتعاوروه بالرواية والشرح أكثر مما نالته حماسة أبي تمام ؟

وحسبنا ثقة بأبي تمام واختياره قول المرزوقي: " ووقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطعات أنقى مما صنعه ـــ يعني أبا تمام – ولا في المقصدات أوفي مما دونه المفضل ونقده "[٣٨] وقوله: " وأما تعجبك من أبي تمام في اختيار هذا المجموع، وخروجه عن ميدان شعره، ومفارقته ما يهواه لنفسه، وإجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق في قصده ، فالقول فيه: أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته " [٣٩] .

ويقول الزمخشري العالم اللغوي: " وهو إن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزله ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: والدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك، لوثوقهم بروايته وإتقانه " (٤٠).

* الوجه الثاني:

إن عدم وجود رواية انتقلت بها الحماسة على أبي تمام فيما وصلنا من نسخ أمر لا يعيب ، وشأن غير قادح ، لأن الإسناد في الرواية الأدبية لم يصبح قاعدة ملتزمة إلا في القرن الثالث والرابع، بل إننا نجد بعض علماء هذين القرنين يضيقون بهذا الإسناد على قصره.

فالمبرد مثلاً كان يهمل الإسناد حينما يتحدث أو يملي ، ويبدو أنه كان مشهوراً بذلك ، حتى قال عنه نفطويه : " ما رايت أحفظ لأخبار بغير أسانيد من المبرد" (٤١).

ويقرر الأسد هذا بقوله " فأكثر الشعر الجاهلي في كتب الأدب العامة، وبعض الدواوين غير مسند ، وأما المسند منه فأقصى ما يصل إليه إسناده هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة في منتصف القرن الثاني، وبعضه لا يرقى إلا إلى الطبقة الثانية، وأحياناً إلى الطبقة الثالثة من علماء مطلع القرن الثالث ونهايته " (٤٢).

ومن العجب أن يقرر الدكتور الأسد هذا، ثم يعمد إلى حماسة أبي تمام فيستلها من بين ما قرره.

* الوجه الثالث:

أما قوله بأن أبا تمام قد أخذ حماسته من كتب ومجاميع، فإن هناك طبقة من الرواة العلماء بدأت مطلع القرن الثاني الهجري ، كان أول شيوخها أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤) وحماد الراوية (ت ١٥٦) وعنهما أخذ سائر من نعرف من شيوخ العلم الرواية ، كخلف الأحمر، والمفضل الضبي،

والأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي عمرو الشيباني، وأخذ عن هؤلاء من تلاهم: كابن الأعرابي، ومحمد بن حبيب ، وأبو حاتم السجستاني ، ثم أخذ عن هؤلاء السكري وثعلب وأضرابها.

وهؤلاء العلماء هم الذين يعنيهم ابن سلام في طبقاته بقوله : " وللشعر صناعة يعرفها أهل العلم " (٤٣) وقوله " وكان أبو عبيدة والأصمعي من أهل العلم، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل " (٤٤) .

وهناك أخبار صرحية تدل على أن هؤلاء العلماء الرواة وجدوا أمامهم كثيراً من دواوين الشعر الجاهلي مكتوبة قبل عهدهم، وأنهم قرؤوها وتدارسوها، وأخذوا منها ما ضموه إلى مروياتهم ومن هنا كانت الدواوين التي صنعوها ، أو المجموعات التي اختاروها قائمة في أساسها على ما كان مدوناً قبل عصرهم.

وقصة ابن الأعرابي مع الكتب قصة مشهورة ، فقد كان كثير العكوف عليها، والمدارسة لها، والأخذ منها. ولما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاماً من غلمانه يسأله المجيء إليه، عاد إليه الغلام فقال: قد سألته ذلك فقال لي: عندي قوم من الأعراب. فإذا قضيت أدبي معهم أتيت ، قال الغلام: وما رأيت عنده أحداً، إلا أني رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها، فينظر في هذا مرة وفي هذا مرة. (٤٥) .

وكذلك كان أبو عبيدة وأبو حاتم السجستاني، يتدارسان الشعر الجاهلي في كتب، قال أبو حاتم : جئت أبا عبيدة يوماً ومعي شعر عروة بن الورد ، فقال لي: ما معك ؟ فقلت: شعر عروة. قال: فارغ حمل شعر فقير ليقرأه على فقير. (٤٦) .

وأما أبو عمرو الشيباني فقد كان كذلك يكتب الشعر والأخبار ويأخذها من الكتب. قال يعقوب بن السكيت " مات أبو عمرو الشيباني وله مائة وثماني

عشرة سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وكان ربما استعار مني الكتاب، وأنا إذ ذاك صبي آخذ عنه وأكتب من كتبه " (٤٧) .

وكان هذا دأب أبي تمام، الذي جمع بين الرواية والمدارسة للكتب، فقد روى الأدب عن رواة كثر، منهم كما ذكر الصولي: (٤٨) كرامة بن أبان العدوي، وأبو عبد الرحمن الأمدي ،وسلامة بن جابر النهدي، وقلابة الجرمي، ومحمد بن خالد الشيباني ، وغيرهم.

وأما مطالعته ومدارسته الكتب فيقول عنها الآمدي : " كان أبو تمام مشتهراً بالشعر، مشغوفاً به ، مشغولا مدة عمره بتخيره ودراسته، وله كتب اختيارات فيه مشهورة معروفة ... وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وأنه اشتغل به، وجعله وكده واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه، فإنه ما شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وأطلع عليه " (٤٩) .

وكانت مجالسته الكتب والدفاتر غايته ومبتغاة، يمضي معها سحابة يومه دون ملل. يروي ابن المعتز عن محمد بن قدامة أنه قال: " دخلت على حبيب بن أوس بقزوين ، وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه، فما يكاد يرى، فوقفت ساعتا لا يعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر إليّ وسلم على ، فقلت له: يا أبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً ، وتدمن الدرس، فما أصبرك عليها ؟ فقال: و الله ما لي إلف غيرها ، ولا لذة سواها " (٥٠) .

فهو من طبقة الرواة العلماء الثانية، الذين ذكرهم ابن المعتز، وعد منهم ابن الأعرابي ، ومحمد بن حبيب ، وأبا حاتم السجستاني، وابن السكيت، وحسبك قول الصولي: " وعلمه وعقله فوق شعره " (٥١) .

وقول المبرد: " ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال: ما رأيت أعلم بكل شيء منه " (٥٢) .

وذكر عن البحتري أنه قال : " والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائي لرأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً ، وعلمت أن أقل شيء فيه شعره "(٥٣) .

ويقول الزمخشري: " فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء: والدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك، لوثوقهم بروايته وإتقانه " (٥٤) .

إذا علمت ذلك من نصوص العلماء السابقة فاجعل ثقتك مكان ثقتهم ، وأطرح الشك، وارم به مكاناً قصياً ، وأغلق باباً لو فتح لتنقصت منه علوم الدين والعربية.

التهمة الثانية :

مفادها أن الحماسة ليست لها رواية أخذت بها عن أبي تمام، لأنها بقيت في خزائن آل سلمة يضنون بها، ولم تنشر إلا بعد وفاته.

وهذه التهمة أشد من سابقتها لو سلم بها دون تمحيص ، ولكني رايتها لا تقوى أمام الدليل، ويمكن الرد عليها من وجهين:

الوجه الأول: أن هذا القول منشؤة أمران:

الأمر الأول: القصة التي ذكرها الخطيب التبريزي، وقد بينا ضعفها عقلاً ونقلاً في ردنا السابق.

الأمر الثاني: أن قائله لم ينظر إلا في شرح المرزوقي والتبريزي، إذ يقول " وهذا المرزوقي شارح الحماسة وبينه وبين أبي تمام نحو مئتي عام ـــ لا يذكر إسناداً انتقل إليه به الكتاب " (٥٥) .

الوجه الثاني: أن هذا القول فاسد عقلاً ونقلاً أما فساده عقلاً: فلا يعقل أن يؤلف أبو تمام اختياره هذا ، ثم يرمي به دون عناية ، وهو من هو في علمه وحرصه، وقد بينت هذا من قبل، وذكرت أراء العلماء في حفظه وإتقانه.

أما فساده نقلاً وهو الأهم: فإني قد جمعت ما يطمأن إليه من الروايات المتصلة سنداً بأبي تمام، من خلال الشروح المطبوعة والمخطوطة ، وقد جاءت عن طرق ثلاث:

الطريق الأول: عن السكري عن أبي تمام

* ومنه إجازة في آخر شرح أبي محمد القاسم الديمرتي، الموسوم بـــ " تهذيب شرح الحماسة وإيجاز لفظها " ، جاء فيها:

" قرأ عليّ الفقيه الفاضل عبد العزيز بن علي بن رجاء نفعه الله بالعلم جميع كتاب الحماسة الطائية ، قراءة ضبط وفهم ، معارضاً بأصلي، وكنت قرأت الحماسة بالبصرة على الشيخ أبي علي عبدالكريم بن الحسن بن الحسين بن حكم السكري النحوي اللغوي، وكان يرويها لنا عن أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، عن أبي علي محمد بن العلاء السجستاني ، عن أبي سعيد السكري، عن أبي تمام " (٥٦) .

وهذه الإجازة بعينها هي رواية ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، فقد جاء فيه: "وكنت قرأت شعر أبي تمام سنة أربع وخمسين وأربعمائة بالبصرة على الشيخ أبي القاسم الفضل بن محمد بن علي بن الفضل القصباني النحوي البصري، وروى لنا هذا الديوان عن أبي علي عبد الكريم بن الحسن بن الحسين بن حكيم السكري النحوي اللغوي، عن أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، عن أبي العلاء السجستاني، عن أبي سعيد السكري، عن أبي تمام، بعضه قراءة عليه، وبعضه سماعاً منه،وبعضه إجازة ،ولله المنة) (٥٧) .

ولعل هذا الطريق من الطرق التي وصلت منه الحماسة إلى المرزوقي ولم يصرح به في مطلع كتابه، حيث جاء في شرحه عند بيت حميد الأرقط:
بسحق الميعة ميال العذر

قوله "وروى السكري: بمشعل الميعة. وهو من إشعال النار والقصب"(٥٨) .

الطريق الثاني: عن أبي المطرف الأنطاكي عن أبي تمام.

* ومن هذا الطريق رواية أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، فقد جاء في مقدمة شرحه: " قال الأستاذ أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني: قرأت هذا

الكتاب ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة على الشيخ أبي أحمد عبد السلام بن الحسن القرمسيني البصري، قال لي : قرأته على أبي رياش أحمد بن هاشم بن شبل القيسي الربعي رحمه الله بالبصرة لسنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وقال أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي قال: انشدنا أبو تمام حبيب بن أوس لبعض شعراء بلعنبر...) (٥٩) .

وهذه الرواية هي أحد الروايات التي اعتمدها الأعلم الشنتمري في شرحه، جاء في مطلع الجزء الثاني قوله:

" قال .... عبيد الله ذو النسبين ابن دحية ، وأخبر رضي الله عنه ... بن علي وفقه الله: حدثني بهذا الكتاب قراءة مني عليه بحضرة مراكش وبمسجد الداي منها سنة اثنين وسبعين وخمسمائة الفقيه الأستاذ المقرئ اللغوي النحوي أبو الحسن نجبة بن يحيى بن خلف بن نجبة الرعيني بحق سماعه له على الوزير الأديب الفاضل أبي بكر محمد بن عبد الغني بن عمر بن فندلة ، قال: سمعت الأستاذ النحوي الكبير أبا الحجاج يوسف بن عيسى الشنتمري. وقد حدثني بها أيضاً الثقة أبو محمد عبد الحق بن عبد الله العبدري أيام قراءتي عليه، عن النحوي الكبير أبي الحسن علي بن أحمد ، يعرف بابن الباذش ، قال الوزير الكبير أبو بكر محمد بن هشام بن المصحفي قراءة مني عليه، قال: قرأتها على اللغوي الكبير أبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، وحدثني بها عن أبي أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن طيفور القرمسيني البصري، عن أبي رياش أحمد بن هاشم بن الرديني بن شبيل القيسي الربعي ، قال: أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي، قال: أنشدنا أبو تمام حبيب بن أوس كتاب الحماسة إلى آخره " (٦٠) .

ومن هذا الطريق أيضاً كانت رواية أبو منصور الجواليقي لمتن الحماسة، إذ جاء في مطلع كتابة:

" قال الشيخ أبو منصور رحمه الله : وأخبرنا أبو الحسن محمد بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، ويعرف بابن أبي الصقر الواسطي ببغداد، قراءة عليه معارضة بأصله ، بخط أبيه في صفر من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، قال: قرأت على شيخنا أبي الحسن محمد بن محمد بن عيسى الخيشي النحوي ، في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة قال لي: قرات كتاب الحماسة على أبي عبد الله النمري، ورواه لي عن أبي رياش رحمه الله ، قال الشيخ أبو منصور موهوب رحمه الله، قال أبو رياش فيما قرأته أنا بخط عبد السلام البصري ، أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي، قال: أنشدنا أبو تمام الطائي كتاب الحماسة كله " (٦١) .

وعن ابن المطرف الأنطاكي كذلك كانت رواية ابن مرقد محمد بن الفقيه، الحسين، فقد ذكر لنا روايتين في مطلع شرحه، الأولى تتصل بأبي تمام، والثانية تقف عند أبي المطرف ، حيث قال:

" وأخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن الحسن بن عمر، ويعرف بابن أبي الصقر الواسطي ببغداد ، قراءة عليه، معارضة بأصله بخط أبيه في صفر من سنه إحدى وتستعين وأربعمائة ، قال: قرأت على شيخنا أبي الحسن محمد بن عيسى الخيشي النحوي في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وقال: قرأت كتاب الحماسة على أبي عبد الله النمري ، ورواه لي عن أبي رياش، وقال أبو رياش فيما قرأته أنا بخط عبد السلام البصري : أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي، قال: أنشدنا أبو تمام كتاب الحماسة كله " (٦٢) .

وقال: " وأخبرني به إذناً الشيخ أبو إبراهيم بن إسحاق البحراني في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة عن السيد أبي الرضا فضل الله بن علي بن عبيد الله العلوي الحسني الراوندي رحمه الله ، عن أبي الحسين علي بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار ، عن أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي الكاتب ، عن أبي المطرف.

قال السيد أبو الرضا: وأخبرني به أبو عبد الله الحسين بن علي بن الوليد النحوي، وكان من أصحاب أبي على الفارسي ، عن أبي رياش عن أبي المطرف " [٦٣] .

الطريق الثالث: عن أبي محمد الديمرتي ، عن محمد بن الفضل صاحب لغدة ، عن أبي تمام.

وعن هذا الطريق كانت رواية أبي الحسن البياري ، فقد جاء في الورقة الأولى من شرحه:

"هذا شرح كتاب الحماسة، صنعة أبي تمام، رواية الشيخ الإمام أبي الحسن علي بن الحارث البياري، عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الهمذاني ، عن أبي عمرو بن عبد العزيز ، عن أبي محمد القاسم بن محمد الديمرتي الإصبهاني ، عن محمد بن الفضل صاحب لغدة، عن أبي تمام [٦٤]
ورواية البياري هذه أحد الروايات التي ذكرها الشنتمري في شرحه [٦٥]

التهمة الثالثة:

مفادها: أن أبا تمام يعمد أحيانا إلى تغيير نصوص الشعر، ليستقيم له أن يربط بين الأبيات التي تفككت ، أو ليستر عوار نقيصه يشين وجه الحسناء من مقطوعاته.

ومنشؤها: قول المرزوقي: " حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما في اختياره بها " [٦٦] .

وقوله أيضاً: على أني قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيراً من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه ، وسلموا له" [٦٧] .

وهذه التهمة بلا ريب أخطر من سابقتيها، لكونها تمس أصل مادة الحماسة، وتحط من قيمتها العلمية، باعتبارها نصوصاً يستشهد بها في علوم العربية خاصة، والعلوم ذات الصلة بالعربية عامة.

وليس من المبالغة القول: إننا لا نكاد نفتح كتاباً في علوم العربية إلا ونجد الحماسة شاخصة فيه، متربعه متربع الثقة. ونص كالحماسة نال رضي العلماء المحققين ، ووقع منهم موقع التسليم جدير بأن لا ينتقص لقولِ فردٍ ، لا يسنده دليل ولم تقم به حجة.

ورد هذه التهمة سيكون من وجهين ، الأول يتعلق بأبي تمام وحرصة على عدم تغيير شعره، ورأى أبي علي المرزوقي فيه، والآخر يقضي تقصي منهج المرزوقي في شرحه لمعرفة مدى إيمانه بهذه المقولة.

الوجهة الأول:

ذكر المرزباني عن أبي العباس الرومي قوله: " حدثني منقال قال: دخلت علي أبي تمام الطائي، وقد عمل شعراً لم أسمع أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرها ، فعلم أني قد وقفت على البيت ، فقلت: لو أسقطت هذا البيت . فضحك ، وقال: أتراك أعلم بهذا مني، وإنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب مقدم ، ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره، ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت ، ولهذه العلة وقع مثل هذا في اشعار الناس " (٦٨) .

ورجل هذا موقفه في شعره من المستبعد أن يتعدى على شعر غيره بالتصرف والتغيير.

وكان أبو تمام يحرص على إنشاد شعره، خوف التحريف والتصحيف، ولا يطمئن لغيره أن ينشد شعره، ويتنبأ بما سيؤول إليه حاله بعد وفاته ، فقد ساق المرزوقي ، في شرحه للأبيات المشكلات طرفاً من خير يروى حول هذا البيت لأبي تمام:

لـــولا الأميـــر وأن حـــاكم رأيـــه فـــي الـــشعر أصـــبح أعـــدل الحكـــام

ولخفت فـــي تفريقـــه مـــا بينـــــنا ما قيل في عمـــرو وفـــي الصمـــصام

فقال: والمعنى أنه لو لا أن الأمير أعلم الناس بالشعر، وأن بذله فيه وله، لا لمنشديه ،وعلى حسب مقاديرهم ، لكنت لا أدفع الشعر من يدي، ولتوليت إنشاده بنفسي حتى يصير إنشادي إياه كالخفير له من الانتحال والضياع، وسائر الآفات ولخفت النبو عليه، واحتجاب الأذان دونه متى لم يؤخذ مني، ولم يسمع من فمي حتى يقول الناس فيه ما قيل في صمصامة عمرو لما تولى الضرب به غيره (٦٩) .

فآفت الشعر في نظر أبي تمام تكمن في التحريف والانتحال والضياع.

أما ما يتعلق بالمرزوقي وموقفه من أبي تمام: فمن المعلوم تعصبه له، وثقته بمروياته وشعره، وله في ذلك كتاب أسماه " رسالة الانتصار من ظلمة أبي تمام " (٧٠) .

وقد وثق المرزوقي بشعر الحماسة كغيره من النقاد، وأثنى عليه في غير موضع، وسوغ اشتغاله بهذا الشرح في تصديره لكتابه " شرح المفضليات" بقوله: " ثم إن بعض من أكبر قدره في الأدب والفضل ، وعرفته قديماً وحديثاً بترك العناد فيما يمسه والحرص على روافد الازدياد عندما يلمسه قال لي فيما يذكر من مواقع الانتفاع بما تحرى من كلامي في معاني الشعر في الكتب التي عنيتَ بشرح ما جمع فيها من شعر الجاهلي والمخضرم والإسلامي والمولد ..." إلى أن قال " ثم اتبع ذلك بأن قال رايتك تصوب فيما صدرت به شرح كتاب الحماسة حكم القائل إنه لم يتفق في لختيار المقطعات أنقى مما سبكه أبو تمام الطائي، ولا في اختيار المفضليات أو فى مما نخله المفضل بن محمد الضبي" (٧١) .

كما شهد على نقاوة هذا الاختيار في مقدمة شرحه حيث قال:

بعد الاستهلال: " وبعد فإنك حانيتي - أطال الله بقاءك في أشمل سعادة وأعمل سلامة ، لما رأيتني أقصر ما استفضله من وقتي، واستخلصه من وكدي، على عمل شرح للاختيار المنسوب إلى أبي تمام حبيب بن أوس الطائين المعروف بكتاب الحماسة - أمر الشعر وفنونه ... وقضيت العجب كيف وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطعات أنقى مما جمعه ، ولا في اختيار المقصدات أو في مما دونه المفضل ونقده "(٧٢) ولم يقف المرزوقي عند هذا الحد بل اتخذ من رواية أبي تمام لبعض الأبيات دليلاً على تصحيح ما قد يعترى الدواوين من تصحيف وتحريف، ومثاله ما جاء في الحماسة المنسوبة إلى يزيد بن عمرو الطائي، وجاء فيها:

وقائلـــة مــــن أمهـــا طــــال ليلــــة   يزيد بن عمرو أمهـــا واهتـــدى بهـــا

قال المرزوقي: " وروى الأثرم هذه الأبيات عن أبي عبيدة للنابغة الذبياني، وأثبتها في ديوانه، وقد غير أبياته ترتيباً ولفظاً ، وقال : إنما هو زياد بن عمرو لأن اسم النابغة زياد ، وزعم أنه قالها في وقعة طيء يوم " شراف" غزاهم حصن بن حذيفة ومعه النابغة، فالتقوا بشراف. والناسبون كالكلبي والشيباني واليربوعي والأصمعي ذكروا أن النابغة هو زياد بن معاوية بن عمرو الطائي. وفي ألفاظ هذه الأبيات على ما وراه أبو تمام شاهد صدق على أنه ليزيد لا النابغة (٧٣) ".

فلا يبقى أمامي إلا أن أقول: إن هذا النص مثار الجدل جاء في معرض الثناء والمدح، وينبغي أن يحمل على ذلك لا أن يقتص من سياقة ويدار حوله ما يدار من تشكيك وتنقص وإقصاء للحماسة عن مصاد الشعر الجاهلي ،

خصوصاً إذا علمنا أن المرزوقي قد برر قوله بالنظر إلى دواوينهم، ونعلم ما قد يعتورها من تصحيف وتحريف.

الوجه الثاني:

لقد كان الشراح قبل المرزوقي ، يوجهون جل اهتمامهم إلى تفسير المسائل اللغوية والنحوية والأخبار ونسبة الشعر، وكانوا لا يعيرون الجانب الأدبي اهتماماً يذكر.

أما المرزوقي فجل اهتمامه منصب إلى النص الأدبي، يشرح ألفاظه، ويفسر معانيه ، ويعنى عناية كبيرة بتمحيص الرواية ، ويطيل النظر فيها، ثم يطلق حكمه عليها، فشرحه للشعر يمتاز على شروح غيره بعقد المقارنات ، وتحليل الروايات ،قناعة منه بأن الشعر عرضه للتصحيف والتحريف ، الذي لم يسلم منه شعر أبي تمام ، علي الرغم من عناية الرواة والعلماء به.

والناظر في شرحه للحماسة يدرك مدى الجهد الذي بذله في محاولته الدائبة لتقويم النص، وتحقيق روايته ، والاطمئنان على صحته.

وجانب الرواية أخطر جانب من جوانب شرحه، إذ كثيراً ما يتوقف على الرواية توجيه المعنى وتحديده ، وقد تعرض لهذا في صور متعددة، ومسلكه فيه أن يجعل نصب عينية أصل الحماسة، ويعتمدها في الشرح غالباً ، وإلى جانبها يذكر الروايات الأخرى، إن كانت هناك روايات، مفاضلاً ، وناقداً، مستخدماً عبارات نحو " أفصح ، أبلغ ، أسلم، أشهر، أجود " [٧٤] .

ويمكن أن نذكر أهم ما نلحظه عند المرزوقي حول هذا المجال فيما يأتي:

أولاً: النظر في مدلول ألفاظ الرواية ومدى مناسبتها للسياق الذي أدرجت فيه، فمثلاً عند قول أبي كبير الهذلي:

ممن حملن به وهن عواقد   حبك النطاق فشب غير مهبل

نجده ينقد الرواية في أصل الحماسة ذاكراً أن الرواية" حبك الثياب" وليست " حبك النطاق" ذلك لأن النطاق قد جاء من بعد في صفة ام المغشم فتكرر، ولأن النطاق لا يكون له حبك وطرائق (٧٥) .

ثانياً: مراعاة انسجام الرواية مع ما يقضيه المعنى، ونجد ذلك واضحاً في شرحه لقول عامر بن الطفيل:

أكر عليـــهم دعلجـــاً ولبانـــه إذا ما اشتكى وقع الرمــاح تحمحمــا

ذكر أن المعنى :" أعطف فرسي دعلجاً عليهم حالاً بعد حال، وكراً بعد فر ، وإذا اشتكى من كثرة وقوع الطعن بصدره حمحم ، وجعل الفعل للصدر على المجاز والسعة لكونة موقع الطعن ،هذا إذا رويت: " ولبانه" بالرفع، لأن بعض الناس روى " ولبانه" بالنصب ، كأنه فر من أن يكون الاشتكاء والتحمحم للبان على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة ، فوقع فيما هو أقبح ؛ لأن المراد: أكر عليهم فرسي، فلا معنى لعطف اللبان عليه " (٧٦) .

ثالثاً: مراعاة قواعد العروض والقوافي، فقد ينقد الرواية بناء على عيب عروضي انطوت عليه، على نحو ما نجده في شرحه لقول عبد المشارق بن عبد العزي الجهني:

جـــاءوا عارضـــاً بـــرداً وجئنـــا كمثـــل الـــسيف نركـــب وازعينـــا

إذ قال: ولا يجوز أن يروى " وازعينا" بكر العين لما يحصل من العيب بالسناد مع ارتفاع الضرورة " (٧٧) .

رابعاً: الوضع في الاعتبار ما قد يطرأ على الرواية من تصحيف، فهو يذكر أن " أعيا وفقعس" في قول حريث بن عناب:

تعالوا أفــاخركم: أأعيــا وفقعــس إلى المجد أدنـــى أم عـــشيرة حـــاتم ؟

يروى " أأعيار فقعس " وأن هذا تصحيف استدركه ... هذا وقد رجعنا إلى نسخ فمختلفات المصادر، فوجدناها متوافقة في تحملها " أعيا وفقعس " (٧٨).

وعند قول ابن زيابة التيمي:

آليـــت لا أدفـــن قـــتلاكم فدخنوا المرء وسرباله

يقول : " هذا البيت لم اجده في نسخ كثيرة، فيغلب في ظني أنه ليس من الاختيار" (٧٩) .

ويظهر أن النسخ التي وقعت للمرزوقي كانت ناقصة ، فلم يجد فيها هذا البيت في حين أنه موجود في نسخ كثيرة، وفي ذلك دلالة على مدى ما يقع في نسخ الحماسة من اختلاف.

وقد يرجع المرزوقي لبعض النسخ لإيراد رواية أخرى للبيت يستحسنها، فمثلاً عند قول عمرو بن معديكرب:

مــا إن جزعــت ولا هلعــت ولا يــرد بكــاي زنــدا

قال" ورأيت في بعض النسخ: ولا يرد بكاي ردا ، وهذا احسن أيضاً ، ويكون المعنى : ولا يرد بكائي مردوداً " (٨٠) .

ومن هذا الاستعراض لمنهج المرزوقي في شرحة من جانب الرواية تتبين لنا أمور منها:

١. اعتماده على نسخ يقارن بينها، ويمحصها، ويختار الصالح منها.
٢. قناعته بأن الشعر عرضة للتصحيف والتحريف، فلا يسلم بالرواية إلا بعد فحص وتحليل ، وربما نظر في الأبيات السابقة واللاحقة للتدليل على ما يختاره من رواية.
٣. يظهر أن بعض النسخ التي وقعت للمرزوقي كانت ناقصه فلم يجد فيها أبيات، في حين أنها موجدة في نسخ أخرى كثيرة.

* وأخيراً وهو الأهم هنا أنه لم يذلل على ما ذهب إليه في مقدمته لشرحة من أن أبي تمام كان يعمد إلى تغيير النصوص ، وربما أبدل الكلمة بأختها، وذلك ظاهر لمن تتبع الشرح من أوله إلى آخره بل ربما كرر مقطوعتين لشاعر واحد في باب واحد في شرحه ، ولو صحت هذه التهمة الملصقة به لوحد الروايتين ، مثل مقطوعة سالم بن قحفان التي جاءت في باب الأضياف بهذه الرواية :

لا تعذليني في العطاء ويسرى لكل بعير جاء طالبة حبلا (٨١)

ثم أوردها برواية أخرى هي:

فلا تحرقيني بالملامة واجعلي لكل بعير جاء طالبة حبلاً (٨٢)

والظاهر عندي أن هذا القول جاء في معرض المدح والثناء، وقد أشرت إلية، وهناك احتمال آخر ليس لي عليه دليل يتلخص في أن هذا القول مدسوس على المرزوقي وهو منه براء، ولا يخفى على دارس للأدب ماعاناه أبو تمام من خصومة في مذهبة، وحساده في تألقه ونبوغه.

الإحالات

١- الموازنة: ٥١
٢- وفيات الأعيان: ١٢/٢
٣- أخبار أبي تمام: ٢٩٤-٢٥٠
٤- طبقات ابن العتز:٢٨٣
٥- أخبار أبي تمام: ١٦٧
٦- السابق:١٧١
٧- السابق:١٧٢
٨- الموازنة: ٥٨/١
٩- حماسة أبي تمام وشروحها:١٣
١٠- إنباه الرواة: ٤٥/٣

١١- إعجاز القرآن: ١١٧

١٢- الخزانة: ١٧٢/١

١٣- وفيات الأعيان: ١٢/٢

١٤- شرح الحماسة للتبريزي: ٤/١

١٥- الكشاف: ٢٢٠/١،الخزانة٤/١

١٦- الخزانة:١٦/١

١٧- يتيمة الدهر: ٣٥٢/٢ ،إنباه الرواة: ٤

١٨- انظر فهرسة ابن خير: ٣٨٧-٣٨٨

١٩- يتيمة الدهر: ٣٩٧/٣

٢٠- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : ٨٠/١

٢١- نشره معهد العلوم العربية والإسلامية بفرنكفورت بألمانيا

٢٢- كشف الظنون: ٦٩٢/١ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : ٨١/١ حماسة أبي تمام وشروحها للدكتور عبدالله عسيلان: ٤٩

٢٣- مقدمة كتابه أسرار الحماسة: ١/ ز

٢٤- السابق: ٩/١

٢٥- السابق: ٤١/١

٢٦- تصدير شرح المرزوقي

٢٧- مصادر الشعر الجاهلي: ٥٨٣

٢٨- يعني ابن جني كما في شرح التبريزي للحماسة

٢٩- الحماسية رقم ١١ ص ٨٣-٨٤

٣٠- مقدمته النقدية:١٤

٣١- شرح ديوان الحماسة:٢/١-٣

٣٢- من حديث الشعر والنثر:٩٨

٣٣- دراسة في حماسة أبي تمام: ١٠-١٣

٣٤- شرحه للحماسة :ل ٢أ

٣٥- شرح ديوان أبي تمام: ٢

٣٦- مصادر الشعر الجاهلي: ٢٦٨

٣٧- السابق: ٦٣٣

٣٨- شرح المرزوقي:٣

٣٩- السابق: ١٣

٤٠- الكشاف:١/٢٢٠

٤١- نزهة الألباء: ١٤٨

٤٢- مصادر الشعر الجاهلي: ٢٨١

٤٣- طبقات فحول الشعراء: ٦

٤٤- السابق انظر ٢١و٢٢و٤٠و٥٠و٩٢و١٢٣

٤٥- مصادر الشعر الجاهلي: ١٧٣

٤٦- السابق: ١٧٤

٤٧- السابق

٤٨- أخبار أبي تمام: ٢٤٩

٤٩- الموازنة: ٥١

٥٠- طبقات ابن المعتز: ٢٨٣-٢٨٤

٥١- أخبار أبي تمام: ١٦٧

٥٢- السابق:١٧١

٥٣- السابق:١٧٢

٥٤- الكشاف:١/٢٢٠

٥٥- مصادر الشعر الجاهلي:٥٨٣

٥٦- بتحقيقنا ، وهذه الرواية هي رواية ديوان أبي تمام انظر شرح ديوانه للتبريزي

٥٧- ص٣

٥٨- شرحه للحماسة٢/١٨٣٢

٥٩- شرحه للحماسة المخطوط ٢ب

٦٠- شرح الأعلم للحماسة: ٢/٦٧١

٦١- ص١

٦٢- شرح الحماسة المنسوب خطأ إلى ابي العلاء: ٤١

٦٣- السابق

٦٤- شرحه للحماسة المخطوط: ١ب

٦٥- ص٢

٦٦- شرحه للحماسة: ١٤

٦٧- السابق: ٨٤

٦٨- الموشح: ٤٩٢

٦٩- مقدمة شرحه النقدية: ٣٥

٧٠- ذكره المرزوقي في شرحه : ١٦٢٠ وكذا التبريزي في مقدمة شرحه لديوان أبي تمام

٧١- مقدمة شرح المفضليات

٧٢- مقدمة شرحه للحماسة:٣

٧٣- شرحه للحماسة: ٩٥٥

٧٤- السابق: ٤٣

٧٥- السابق:١/٨٦ ومثله في ٢/٨١٨

٧٦- السابق: ١/١٥٤

٧٧- السابق: ١/٤٤٥

٧٨- السابق: ١/٢٧٧

٧٩- السابق: ١/١٤٥

٨٠- السابق: ١/١٨٠

٨١- السابق: ٢/١٥٨١

٨٢- السابق: ٢/١٧٢٦

المصادر والمراجع :

١- أخبار أبي تمام، للصولي أبي محمد بن يحيى ، تحقيق خليل محمد عساكر وآخرون، المكتب التجاري ، بيروت.

٢- أسرار الحماسة ،للسيد علي المرصفي ، الطبعة الأولى، مطبعة أبو الهول، القاهرة ١٣٣٠هـ ـ١٩١٢م

٣- إعجاز القرآن ،للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيب، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة ١٣٨٣هـ ـ١٩٦٣م

٤- إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي علي بن يوسف، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى،دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ ـ١٩٥٥م

٥- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، دار المعارف المصرية الطبعة الثانية

٦- تهذيب شرح الحماسة وإيجاز لفظها للديمرتي أبي محمد القاسم، تحقيق ودراسة الكتور إبراهيم مسعود الفيفي ،رسالة دكتوراة جامعة أم القرى ١٤٢٤هـ

٧- الحماسة (متن) برواية أبي منصور الجواليقي، تحقيق أحمدحسن بسج ، الطبعة الأولى١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م دار الكتب العلمية بيروت

٨- حماسة أبي تمام وشروحها، للدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان، دار اللواء الرياض ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م

٩- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي السلفية ١٣٤٧

١٠- دراسة في حماسة أبي تمام ، للأستاذ علي النجدي ناصف،مطبعة الرسالة١٩٥٩م

١١- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمدعبده عزام، الطبعة الثالثة دار المعرف مصر ١٩٧٢

١٢- شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري، تحقيق علي حمودان ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ١٩٩٢م مطبوعات مركز جمعة الماجد دبي

١٣- شرح حماسة أبي تمام لأبي الحسن البياري، مخطوطة مكتبة راغب باشا رقم ١١٢٣

١٤- شرح حماسة أبي تمام لأبي زكريا يحيى ابن علي التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ،مطبعة حجازي القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م

١٥- شرح حماسة أبي تمام لأبي الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني، نسخة مصورة من مكتبة الأسكريال محفوظة بمعهد المخطوطات العربية رقم ٥١٧ أدب

١٦- شرح حماسة أبي تمام لأبي القاسم زيد بن علي الفسوي نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية رقم ٥١٨ أدب
١٧- شرح حماسة أبي تمام لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي ، تحقيق عبدالسلام هارون وأحمد أمين، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٨- شرح حماسة أبي تمام لابن مرقد المنسوب خطأ لأبي العلاء المعري، تحقيق الدكتور حسين محمد نقشة ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م دار الغرب الإسلامي ،بيروت
١٩- شرح المفضليات بشرح التبريزي محمد بن علي بن محمد ، تحقيق علي محمدا لبجاوي ،مطبعة النهضة ،مصر، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م
٢٠- طبقات الشعراء،لعبدالله ابن المعتز ابن المتوكل، تحقيق عبدالستارفرج، الطبعة الأولى١٣٧٥هـ ١٩٥٦م ، دار المعارف، مصر
٢١- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، طبعة دار المعارف مصر
٢٢- الكشاف، لجار الله الزمخشري، طبعة مصطفى الحلبي.
٢٣- كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون، لمصطفى عبدالله الشهير بحاجي خليفة ، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى.
٢٤- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، للدكتور ناصر الدين الأسد، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م، دار الجيل بيروت.
٢٥- منثور المنظوم للبهائي، لأبي سعيد محمد بن علي بن خلف الهمذاني، نشرة معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت ألمانيا.
٢٦- من حديث الشعر والنثر، للدكتور طه حسين، الطبعة العاشرة، دار المعارف بمصر.
٢٧- الموشح للمرزباني محمد بن عمران، تحقيق محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية١٣٨٥هـ ، المطبعة السلفية.
٢٨- الموازنة، للآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، تحقيق سيد صقر، دار المعارف بمصر.
٢٩- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري أبو البركات عبدالله بن محمد، نشر علي يوسف.

٣٠- وفيات الأعيان وإنباه أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت.

٣١- يتيمة الدهر للثعالبي أبي منصور عبدالملك النيسابوري، تحقيق مفيد محمد قميحة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣مدار الكتب العلمية ، بيروت.

* *